الصحاح في الثقافة الإسلامية بين المفكر واللامفكر فيه

د. عبد القادر بوعرفة،

أستاذ محاضر ورئيس قسم الفلسفة،

بجامعة وهران / الجزائر.

Abstract

The subject of this study tends to seriously study the phenomenon in the history of Islam ,the phenomenon (*tedwin elhadith*) codification of the *Sunnah*, This Phenomenon historical and religious produced many of the problems that still haunt contemporary Islamic thought scientifically and culturally, because it was born at a time of political conflict and fighting between the Islamic symbols .

Codification *elhadith* seen from two faces: general face (Thinkable), he is dominant in Islamic thought, based on the need to justify the legislation and the development of Islamic provisions, and to understand the Koran, and then for fear of extinction (*elhadith*) after the death of the Prophet and his followers. The second aspect is(unthinkable) exploiting the historic and symbolic personality of Prophet have a big impact in shaping the social and cultural history to pass a lot of chatter, *Sunan* and the actual that serve certain interests at the expense of other parties in the area of political conflict and the cultural and tribal.

General appearance of a historical fact, a large share fundamentalism, but *elhadith* payload and historical knowledge made it very difficult to control scientifically and historically. Because it violates the spirit of the Koran in many texts, opposes mental sincere consideration. We are not talking about the lack of acceptance elhadith within the system and unacceptable by *elhadith* supporters, but we are talking about the phenomenon of writing *elhadith* under the so-called *Essehah*.

المولج

يثير الفكر الإسلامي عبر تشكلاته التاريخية ، عدة تساؤلات إبستيمية، فالتطور كسنة يخضع لها الدين الشرعي والوضعي معا تفرض على الدين كظاهرة اجتماعية وتاريخية جملة من التحولات في بنيّته القاعدية، والتي تعرف عند علماء المسلمين بالأصول. وتلك التّحولات هي وليدة لحظات تاريخية مؤثرة باعتبار أن التاريخ في صيرورته المتنامية نحو الاكتمال يتأسس فقط على الحدث الخلاّق الذي

ينبثق من أفق اللحظات ، فالتاريخ من حيث العموم يخضع للسكون والعادي في أغلب أحداثه، والتي غالبا ما يكون التشابه هو الذي يوضح معالمها الأساسية، بيد أن اللحظات المارقة من العادي هي التي تخلق الحدث وتعطي للحدث قيمته في سلم التاريخ العام.

واللحظات التاريخية التي تحكمت في الظاهرة الدينية في الإسلام كثيرة، ولكل لحظة انعكاسات على الإسلام كظاهرة كونية ، إما انعكاسا إيجابيا خلاقا وإما سلبيا مشلا لكل تقدم حضاري ممكن.

إن موضوع الدراسة يتجه صوب دراسة ظاهرة مؤرقة في تاريخ الإسلام، وهي ظاهرة تدوين الحديث وما تفرع عنها من مشكلات تاريخية لا زالت لحد الساعة تشكل هاجسا علميا وحضاريا، فتدوين الحديث ولد في زمن الفتن السياسية والاقتتال بين الرموز الإسلامية. وشكّل بالفعل ظاهرة دينية مقلقة كما يقول أركون:" ***كل هذا يعني أن ظاهرة الكتابة بصفتها انتقالا من الصعيد الشفهي إلى صعيد أخر مختلف من وظائفية اللغة وآلية ممارستها، وبصفتها أساس الأرشيف المرتبط بسلطة الدولة.، قد أنكرت وجحدت بل وحذفت باسم تركيبة تيولوجية لاهوتية تكذبها الكثير من الآيات القرآنية العديدة والصريحة***." (أركون،م، 1993، 82)

من المنطقي أن يكون لتدوين الحديث من حيث الحدث وجهان : الوجه الظاهري (المفكر فيه) وهو المسيطر على الخطاب الإسلامي ، والذي يبرر تدوين الحديث بمرارات الحاجة للتشريع، وفهم النص القرآني، والخوف من اندثار أحاديث النبي بعد وفاة الصحابة والتابعين. والوجه الثاني (اللامفكر فيه) يتمثل في استغلال الرسول كرأسمال تاريخي وشخصية رمزية لها وزنها التاريخي والاجتماعي من أجل تمرير الكثير من الأحاديث والسنن الفعلية والتقريرية التي تخدم أطرافا على حساب أطراف أخرى في مجالات التدافع السياسي والحضاري.

إن الوجه الأول له قسط من الصحة التاريخية والحكمة الأصولية، غير أن الحديث كحمولة معرفية أصبح من الصعب بمكان ضبطه ضبطا علميا يتماشى وروح القرآن الكريم، وما يقتضيه النظر العقلي الصريح. ونحن لا نتكلم عن وضع الحديث ضمن دائرة الضعيف والمرفوع التي تكفل السلف بنقدها وإبراز تهافتها،

بل نحن نتحدث عن ظاهرة وضع الحديث ضمن دائرة ما يعرف بالصحاح لدى السنة. (إن الأحاديث الواردة في كتب الشيعة مثل الكافي وغيره لا ترقى من حيث ضبط السند والمتن إلى المرتبة التي بلغت عند أهل السنة، وذاك باعتراف أئمة الشيعة ذاتهم ، وكذا نقاد عصر التدوين.)

1. منهج الدراسة

إن دراسة الصّحاح في الفكر الإسلامي دراسة نقدية يثير الخوف من التّبعات المنجرة عنه، فالعلماء الأوصياء على الدين بغير حق يضعون في الغالب جملة من العوائق أمام الدراسات العلمية والأكاديمية، ويمكن ذكر تلك المعوقات على النحو التالي:

- **عائق التقديس**: أن أئمة الصحاح أئمة تعالوا عن التجريح والنقد، وبالتالي هم أقرب إلى العصمة، وخاصة الإمام البخاري وبعده مسلم. وكل نقد للبخاري تُعد معصية كبرى تستوجب على أنصار السنة الدفاع والرد بكل الطرق (هدر الدم).

- **عائق الاكتمال**: كل نقد للصحاح يعتبر بمثابة تقويض لأصول الإسلام، لأن نقد الحديث الصحيح يفتح في رأيهم الباب لنقد القرآن، ومنه الطعن في الإسلام باعتباره كاملا مكتملا. (راجع كتاب زكريا أوزون ، جناية البخاري (من 1 إلى 165).)

- **عائق الاصطلاح**: أن تسمية الكتاب بالصحيح هو مصادرة عن المطلوب ، وتعتبر عائق سيكولوجي لأن الصحيح أصبح في اللاشعور الجمعي مقدسا لا يأتيه الباطل من كل اتجاه. وهذا ما ذكره زكريا أزون في كتابه (جناية البخاري: إنقاذ الدين من إمام المحدثّين).

- **عائق التبرير**: إن حراس السنة كما يسمون أنفسهم اليوم، انتهجوا أسلوب التبرير السحري لكل ما يحوم حوله النقد، والتبرير لا يذهب إلى مضمون الحديث بل يذهب إلى أعراضه وحواشيه. ومحاولة تأويله تأويلا يتطابق مع روح القرآن حتى لو كان الحديث من حيث المضمون يحملا تناقضا مع النص القرآني، ولقد أورد كثير من النقاد المعاصرين تلك المسألة كالدكتور عبد الله الخليفة.(راجع كتابه : لماذا القرآن ؟، من ص 80 إلى 130).

ـ عائق التكفير : ويستعمل غالبا عندما لا تنجح العوائق السابقة في وقف العقل النقدي، ويقوم التكفير على مسلمة سلفية رهيبة : كل رفض للحديث الصحيح هو رفض للدين، فإنكار البعض يؤدي عندهم بالضرورة إلى إنكار الكل. والتكفير لو انصب على المفكرين والفلاسفة لأمكن فهمه على أنه تكفير إيديولوجي محض، لكن أن يُكفر علماء الدين المشهود لهم بالخبرة والتخصص، فهذا يثبت أن المسكوت عنه هو الذي يؤطر عملية الدفاع الأعمى عن الصحاح. وقد عبر عنه تركي الحمد بانتصار الإيديولوجي على الإبستيمولوجي :" ***حين هيّمن الإيديولوجي على الإبستيمولوجي بصورة رسمية مع القرار السياسي للمتوكل بقفل باب الاجتهاد، الذي ينتمي إلي الحقل المعرفي وليس الحقل السياسي المباشر أو البحث.***" (الحمد ، ت، 2003، 56)

ولأجل تجاوز العوائق السالفة ، والبحث في المسكوت عنه ، سنحاول أن نتبع المنهج التالي:

1- **التعليق الزمكاني:**

وضع الظاهرة الدينية كموضوع غير مرتبط بالزمن في حقوله الثلاثة (الماضي _ الحاضر _ المستقبل) والغرض من التقويس (التعليق _ الحبس الظرفي) التعامل مع الظاهرة الدينية كظاهرة تستدعي التأمل والتعمق، ونحن بذلك نركن إلى منهج ابن طفيل في كتابه حي بن يقظان حين علق الظاهرة الدينية عن التأثيرات الاجتماعية والتاريخية. وكانت غايته في ذلك أن الفطرة والعقل يصل إلى الحقائق واليقينات الدينية دون تشبيع اجتماعي، وأن التشبيع الاجتماعي يجعل الظاهرة الدينية مجرد صنم يغذي المتشبع بالأوهام وظلال الحقائق. ولذلك لنفترض أن ما يسمى صحيح البخاري وضع مع القرآن الكريم في جزيرة مهجورة - شريطة أن يُقدم كتاب البخاري دون شروحات ولا تعليقات ودون تقريظ، وأن يكون الكتاب خالي من كلمة صحيح البخاري. ثم نقوم باستقدام إنسان استكمل نضجه العقلي وعاش بمعزل عن التأثيرات الاجتماعية، ويجيد اللغة العربية. ثم لنتركه يتعامل مع النصين مدة من الزمن دون مرجعيات، فالنتيجة أنه سيجد ثمة تناقضات صارخة بين القرآن وكتاب البخاري. وهي النتيجة نفسها التي توصل إليه حي بن يقظان عندما وجد تناقضا صارخا بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات.

2. **الحصر الفينومينولوجي** : تعليق الأحكام التاريخية لبرهة من الزمن، وعلى رأس تلك الأحكام: "***أن صحيح البخاري هو أصح كتاب بعد كتاب الله.***" (ابن حجر، ع، ص 7) أو قول القاسمي : "***صحيح البخاري عدل القرآن.***" (القاسمي، قواعد التحديث، 250).

والأمر ينطبق على باقي الصحاح التي لا تقل منزلتها عن منزلة كتاب البخاري نفسه. ونحن نعتقد أن تجربة الحصر والتعليق قد تؤدي بالفكر النقدي إلى إعادة الحديث كموضوع تمارس عليه الذات نوعا من التأمل الوصفي المتعالي:" ***ونظرية الحصر عند هوسرل تحاول أن تعطي للذات العارفة لحظة مثالية لأجل تأمل الموضوع تأملا وصفيا ماهويا، مع توفير شروط إدراك الموضوع من خلال ربطه بالأحوال النفسية للذات التي تتحدد وفق تفاعلات الذات مع أحوالها الشعورية.***" (**بوعرفة ، ع ، 2005، 67)**

أن لا نفصل بين الذات الدارس والموضوع المدروس، ونقصد بذلك أن المنهج يفرض الخروج عن منهج السلف الذي يضع الحديث المروي في الصحاح فوق الذات. فإبراهيم عليه السلام منهجه التأملي كنبي قام على المزاوجة بين الذات والموضوع في مسألة أخطر من الحديث، وهي مسالة وجود الله. فأنا كذات متلقية ومتأملة في الوقت نفسه تمتاز بالشك والنقد وعدم التسليم بالشيء، لا بد أن تجد لنفسها حضورا يماثل حضور الموضوع (الحديث).

3. **القصدية** : لا بد أن يرتبط الغرض من الدراسة بالرغبة الشعورية الآنية المتحررة من تداعيات اللاشعور، فإثارة السؤال والشك ليس الغرض منه الإنكار أو الرفض أو الهدم من أجل الهدم، بل الغرض من ذلك هو فهم ما يستدعيه الوعي النقدي من تأملات استوقفت الذات أمام عتبات القراءة. والتي تتحدد من خلال ثلاثة مواقف:

أ- تحديد قضية أو حكم يصبح قابلا أن يكون موضوعا للإدراك.

ب- الشك في ماهية الموضوع الأولي من حيث: الصورة، الغاية، الصدق.

ج- إعادة بناء الإدراك الجديد، لأجل إثبات صواب الموضوع أو خطئه.

إن البحث من خلال سلسلة التجارب التي مرت بها الذات العارفة يُفصح عن الرغبة في معرفة الموضوع من خلال التجربة القصدية. ونحن من خلال هذا المنهج نستحضر إدموند هوسرل:" ***إن الشعور بشيء لا يعني أن نفرغ الشعور من هذا***

الشيء بل أن نجعله يتجه إليه حيث أن كل الظواهر لها تكوينها القصدي الذي يوجه الإدراك نحوها تلقائيا." **(إمام، ع ، 1986، 29).**

إن فكر محمد الغزالي كان بإمكانه أن يشق طريقا علميا يُمَكن للفكر النقدي أن يُطور قصديته إلى فكر بنّاء، فلقد استطاع من خلال نقده للسنة النّبوية أن يتعالى بذاته العارفة عن الموضوع المُهيمن :" ***فغايتي تنقية السنة مما قد يشوبها! وغايتي كذلك حماية الثقافة الإسلامية من ناس قيل فيهم: إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويدرسونه يوم الأحد، ويعلمون أساتذة له يوم الاثنين...*** " **(الغزالي، م، 2005، م ط 13)**

4. **إعادة تركيب** :

إن عملية الوضع الفينمومينولوجي لظاهرة وضع الحديث لا بد أن تسفر آخر الأمر عن ما وراء القصدية للواضع والناقد معا ، وعندما نرفع ما وراء الظاهرة يمكن عندئذ أن نقدم فهما تركيبيا للموضوع. وبالتالي نعيد فهم النص وترهينه.

2. الجهاز المفاهيمي

الظاهرة الدينية كمعطي للتأمل هي ذاتها مفهوم بحاجة إلى خلخلة، فالظاهرة (Phénomène) تعنى من الوجهة الاصطلاحية الواقع النفسي المدرك بالشعور، كالظواهر النفسية والاجتماعية ومن هنا تصبح الظاهرة الدينية مستعصية، باعتبارها ليست ظاهرة اجتماعية صرفة ولا نفسية، وبما أن الدين الشرعي له أفق ميتافيزيقي (غيبي) يصبح ربطه بالظاهرة كمعطى وضعي غير منسجم مع بنيته المتعالية، لذا نحن من خلال سحرية العنوان وصعوبة التحديد يمكن أن نتفق على أن الظاهرة الدينية المقصودة هي الظاهرة العامة المُحددة ضمن البحث العلمي المبني على معطيات التجربة الممكنة وفق رؤية كانط :" ***وللظاهرة عند (كانط) معنى خاص ، وهو إطلاقها على موضوع كل تجربة ممكنة، أي ما يحدث في الزمان والمكان***."(صليبا، ج ،1986، 30).

ومن خلال التحديد السابق للظاهرة تصبح الظاهرة الدينية هي تلك التجليات القابلة للدراسة باعتبارها تجارب ممكنة مؤطرة بالزمان والمكان. واختيارنا لموضوع وضع الحديث داخل الصحاح يكون متناغما مع التحديد المفهومي لظاهرة الدينية ، فتدوين الحديث ظاهرة لأنه يعبر عن تجربة ممكنة في تاريخ الفكر

الإسلامي ، وتلك التجربة يلعب فيها عنصري المكان والزمان الدور الحاسم في نشأتها. ومنه تصبح تجربة لها جانبها الموضوعي والذاتي، فإذا كان الجانب الموضوعي هو ما تحاول كل الدراسات الإسلامية تقديمه لتبرير صحة الصحاح، فإن الجانب الذاتي هو المسكوت عنه لكونه يدحض الكثير من الحقائق المُرسمة فقهيا وسياسيا لا شرعا وعقلا.

ولكي نحدد مفهوم وضع الحديث في الصحاح لا بد أن نفرق بين الوضع القصدي الذي رفضه أهل الحديث، وبين وضع الحديث الذي مارسه أهل الحديث، فهو لا يعتبر وضعا بل تدوينا مقصودا، لكن من حيث العمق هو وضع لأن المُدون قبل تدوينه علم الخلل الذي يعتري سنده أو عدة مقاطع من متنه. والمُدون إذا كان الحديث لا يخدم مذهبه وقربه من السلطان عمد إلى استبعاده، ويدون حديثا آخر لوجود منفعة حتى ولو كان على المستوى نفسه من الجرح بالنسبة للحديث المرفوض.

3. الحديث في الصحاح بين النقد والتقديس

الصحاح المسلم بصحتها عند أهل السنة لا يفوق عددها الستة وعلى رأسها كتاب البخاري ثم مسلم ، ونحن منذ البداية لا بد أن نعترف أن هذه الكتب هي المرجع الثاني بعد القرآن في التشريع والاحتكام إلى النص، وأنّها قدمت خدمة جليلة للفكر الإسلامي من أجل تطوير الاجتهاد واستنباط الأحكام ، وتفسير القرآن الكريم ، وتوضيح الجزئيات التي لم يرد ذكرها في القرآن الكريم ككيفية الصلاة والزكاة، وكثير من العبادات والمعاملات، كما أنها بيّنت القواعد العامة والخاصة في العقائد. ويمكن القول أن كتب الصحاح على العموم تمثل مصداقية كبرى لعملية تدوين الحديث (قولا- فعلا- تقريرا)، خاصة أن كُتّاب الحديث انتهجوا مناهج صارمة في قبول الحديث. والمثال التاريخي الرائد يكمن في منهج الجرح والتعديل الذي اهتم بنقد السند والمتن لكون الحديث من حيث بنيّة النص هو خبر، وكل خبر يحمل إمكانية الصدق والكذب. ومنه يصبح كل حديث مروي يحتمل إمكانية الصحة بالقدر نفسه الذي يحتمل الكذب. عندئذ كان منهج الجرح والتعديل المنهج الشائع لنقد الحديث، وإثبات مرتبته ضمن السلم المتفق عليه . لكن بالرغم من تلك الصرامة التي تتحدث عنها كتب التاريخ ،

يقف المتأمل أمام ظاهرة ما يسمى بالصحاح موقفا مريبا، ويجتاحه الشك المنهجي قبل أن يلج إلى تحليل المضمون وقراءة الأحاديث قراءة علمية . وأول ما يثير الشك في ظاهرة الصحاح ما يلي:

1. الخلاف مع نقطة البدء : قام الرعيل الأول من المسلمين بتدوين القرآن بأمر من الرسول (ص) وتم تدوينه وحفظه بعيدا عن الفردية والأحادية (ونهى عن تدوين سننه)، بل وُكل لتلك المهمة زمرة من الصحابة نقلوا القرآن إلينا نقلا متواترا، ولم يختلفوا فيه إلا في مخارج الحروف لاختلاف ألسنة العرب وفي الناسخ والمنسوخ. وبالرغم من مشكلة جمع القرآن التي بدأت مع الخليفة الراشدي أبي بكر وانتهت بالخليفة عثمان بن عفان إلا أن المسلمين لم يطلقوا على مصحف المُرسم بالصحيح ، لأنهم لم يكونوا بحاجة لتلك التسمية أصلا، فبنيّة القرآن تدل دلالة قاطعة على صحته . في حين أن علماء المسلمين لازالوا لحد الساعة يجدون ويجتهدون في وسم كتب الحديث بالصحاح، وهذا الإصرار معناه أن الذات العارفة حين تعاملت مع الموضوع أدركت أن فيه ما ليس فيه (**الشك المكبوت**).

ولقد بين محمد الغزالي في كتابه الرائع (السنة النبوية بين أهل الفقه..وأهل الحديث) أن نقد الحديث لم يكن وليد اللحظة التاريخية الراهنة بل أن النقد كان منذ عصر الخلفاء، وان استمراره اليوم هو استمرار لخطهم العلمي :" ***وهم بهذا المنهج يتأسون بالصحابة والتابعين. انظر موقف عائشة رضي الله عنها عندما سمعت حديث إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه! لقد أنكرته، وحلفت أن الرسول ما قاله، وقالت «أين منكم قول الله سبحانه «لا تزر وازرة وزر أخرى». إنها ترد ما يخالف القرآن بجرأة وثقة، ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتا في الصحاح بل إن «ابن سعد» في طبقاته الكبرى كرره في بضعة أسانيد!.***" (الغزالي، م، 2005، ص 11)

2. المنهج غير المعصوم: أن المنهج المتبع في الحديث منهج نسبي، وما هو نسبي تكون نتائجه بالضرورة نسبية. ومنهج الجرح والتعديل من حيث الأصل يصدق على خبر محصور زمانه ومحدود مكانه، فكلما تباعد الزمن واتسع المكان كان من الصعب تطبيقه على الخبر سندا ومتنا.

3. الإنسان خطاء ونساء: خاصة بعد مرور ثلاثة قرون على الحديث ، فلو صدقنا بصحة سنده فلا يمكن التصديق بصحة متنه، فكيف يعقل أن يحفظ الناس أحاديث النبي بتلك الضخامة العددية في حين أن حديثه الواضح والرسمي والذي سمعه الكل لم يدون كله ، أقصد خطب الجمع ، ونحن نعلم أن خطب الجمعة التي أداها الرسول تفوق 855 لم يدون منها إلا العشرات وأغلبها خطب مجتزأة ومبتورة. والعلة في عدم الاهتمام بخطب الجمع أن تدوينها لا يحقق المنافع للأطراف المتصارعة على السلطة، فالجمعة كخطبة تدخل في الخبر المتواتر - أكثر المقامات التي سمعها الناس- لذا الاستدلال بها يعرض صاحبه للنقد لكثرة الشهود والرواة، لذا لم يقم الناس بتدوينها كما دونوا الأحاديث.

إن الركون والتسليم بصحة البخاري أدى في كثير من اللحظات التاريخية إلى تجميد العقل الإسلامي وغلق باب الاجتهاد بحجة شرعية النص وقاعدة لا اجتهاد مع النص، ولقد فهم بعض دعاة السلفية المعاصرين تلك الخطورة فحاول أن يقوض عصمة البخاري من خلال نقد كتابه (الصحيح) نقدا مزدوجا (المتن والسند)، وفي هذا السياق يقول الألباني :"***المسلمون كافة لا فرق بين عالم أو متعلم أو جاهل مسلم.. كلهم يجمعون على أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وعلى هذا من النتائج البديهية أيضاً أن أي كتاب يخطر في بال المسلم أو يسمع باسمه قبل أن يقف على رسمه لا بد أن يرسخ في ذهنه أنه لا بد أن يكون فيه شيء من الخطأ ، لأن العقيدة السابقة أن العصمة من البشر لم يحظ بها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم***." (الألباني، الفتاوى، ،524).

4. الرواة الخارقون : لا يقبل رجل رشيد أن يكون من أسلم في أخر حياة الرسول هو متصدر قائمة الرواة ، مقارنة مع الصحابة الكبار الذين عاشوا مع الرسول طيلة حياته، فأبو بكر الصديق كان أحفظ أهل الجاهلية والإسلام لأنساب العرب ، فكيف لهذه الذاكرة الرهيبة والتي عاشت مع الرسول 23 سنة، وصدقت كل ما قاله أن تروي عنه فقط 135 حديثا، وإن كان أغلبها قابل للمراجعة. ونقصد بالرواة الخارقين للعادة كل من أبي هريرة الدوسي (قال فيه عمر بن الخطاب "عدوا لله والإسلام،عدوا لله ولكتابه، سرقت مال الله، حين استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ما رجعت بك أميمه (أمه) إلا لرعاية الحمير". وضربه بالدرة حتى أدماه. (

ابن عبد ربه، /1 53/ العقد الفريد). وقد منعه تماما عن رواية الحديث النبوي بقوله: (لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القرود أو بأرض دوس) (ابن كثير ، 206/8/ البداية والنهاية) . وقد بلغ ماروى (5374) على حسب ما أثبته ابن الجوزي . في حين لم تدم صحبته مع الرسول إلا عام وستة أشهر.) وعائشة زوج الرسول وعبد الله بن العباس، ونحن لا نطعن في شخصهم بل نطعن في الأطراف التي وظفتهم بعد موتهم من أجل وضع أحاديث نبوية على ألسنتهم بغية تحقيق أغراض سياسية ودنيوية.وفي هذا الصدد يقول الشنقيطي :" ***إن الانفعال السائد في الدفاع عن السلف قد أهدر قدسية المبادئ حرصا على مكانة الأشخاص.***" (الشنقيطي، م، 2004، 13)

5- حضور اللامعقول : إن المعقول في الصحاح يسيطر بنسبة معتبرة، غير أن اللامعقول حضر حضورا ملفتا للانتباه في كثير من المتون. ونقصد باللامعقول تلك أحاديث التي يرفضها العقل بالبداهة لا بالتعقل ، كطول آدم({ **خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**} صحيح البخاري .) ، وقصص الأنبياء خاصة موسى ({ **كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده. فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه فخرج موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر. حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً** } صحيح البخاري 293/1. ورواه مسلم.) ونوح، أو تلك التي يرفضها العقل بالتجربة كأحاديث دواود وسليمان({ قال سليمان بن داود ذات مرة: أقسم بالله سأجامع الليلة مائة (أو تسعا وتسعين) امرأة كل منهن ستنجب فارساً سيقاتل في سبيل الله. يعني بذلك إن شاء الله ولكنه لم يقل بمشيئة الله لذا واحدة فقط من أولئك النسوة حملت وأنجبت طفلا } صحيح البخاري (مجلد 4 / الباب 25/ رقم 72))... وبالتالي فاللامعقول ينم عن وجود الوضع داخل الصحاح أما لغرائبية الخبر أو لأنه يؤدي وظيفة اجتماعية في زمانه.

6. التعارض مع محكم القرآن: إن الدارس للقرآن بتمعن يكتشف أن كثير من الأحاديث في الصحاح تتعارض مع أحكامه أو معانيه ومقاصده الخمس. ومن تعارض الأحكام ما رواه البخاري في باب الحيض، وفي معانيه ما رواه حول ذات الله، وفي المقاصد ما رواه في باب الرجم والحرابة.

4. مسوغات الوضع في الصحاح

أغلب من درس الفكر الإسلامي يكتشف أن مدرسة الحديث تشكلت بصورة مؤسساتية في الحقبة العباسية الثانية، وخاصة على يد السلطان المتوكل بالله، وهنا نجد أنفسنا أمام رد إيديولوجي على إيديولوجية سلطوية سابقة (المعتزلة) . فالمتوكل اشتهر بتذمره من المعتزلة وحاول أن يقوض مذهبهم عن طريق خلق مدرسة فكرية مهمتها أنتاج المدونات النبوية، بحيث يصبح النص المدون الموصول إلى الرسول يحمل من الشرعية التي تقضي على حركية النص العقلي، لأن السلطة استشعرت الخطر وراء اتساع دائرة النظر العقلي، وبالتالي نحن أمام محاولة سياسية تستعمل الظاهرة الدينية من أجل إنقاذ الظاهرة السياسية. كما فعل المأمون عندما رسّم المذهب الاعتزالي كمذهب للسلطة.

ولعل البعض يقول أن كتاب الموطأ سبق عصر المتوكل ، والبعض يُدرجه ضمن الصحاح ، والرد على ذلك سهل وغير ممتنع ، فالموطأ نفسه كان نتيجة طلب من السلطان (أبو جعفر المنصور) لأجل وضع مذهب رسمي للدولة العباسية. وإن كان مالك بن أنس قبل الطلب (الإنجاز) ورفض الغاية (الإلزام). ولقد أثبت بعض المفكرين ذلك المسكوت عنه ، كالذهبي ، وابن خلدون ، وبعض المعاصرين كالغزالي والشكعة... والأمر نفسه أكده الشيخ البوطي في مناظرته مع المرزوقي : "***ودام الأمر على ذلك مدة خلافة المعتصم والواثق، إلى أن جاء المتوكل فرفع المحنة وألجم أفواه المعتزلة، وسدّ في وجههم منافذ السعي إلى الفتنة والانتصار للنفس، ولعل المتوكل لم يكن له ما يحمد عليه أكثر من هذا العمل الذي قام به***." (البوطي،س ،2006، 258)

ونحن نلاحظ أن البوطي ينساق وراء تبرير ظهور أهل الحديث كأهل حق وعلم والمعتزلة كأهل حيف وظلم. فالخطاب لم يستطع أن يتخلص من ظاهرة التخفي وراء الدافع السياسي. فعصر الصحاح إنما جاء في الأصل من أجل عملية

استخلاف السياج القديم (المعتزلة = الوظيفة المنتهية) لتأسيس أهل الحديث كسياج جديد يؤطر السلطة ويعطي لها الشرعية.

إن التدافع السياسي كان له الأثر الكبير في تكوين مدارس أهل الحديث ، وكان لابد كمقابل أن يُقدم أهل الحديث الثمن الذي يريده السياسي، ليس بوضع الحديث وانتحاله بل من أجل ترسيم ما كان قد وُضع أصلا في العصر الأموي والعباسي ، وخاصة ما تعلق بالخلافة والولاية وبعض السائل التي تتعلق بالمكانة والشرف.

وإن كان أهل الحديث قدموا للفكر الإسلامي خدمة جليلة إلا أنهم في المقابل قد جنوا على الفكر الإسلامي جناية كبيرة، وتلك الجنايات لم تكن إرادية بل هي نتاج الإصرار على الرأي وتحويله إلى دوغما.

ولقد استطاع أنصار الشعوبية أن ينتقموا من الرموز الإسلامية من خلال الحديث النبوي بعدما فشلوا من إحراز أي تشويه من خلال ما كتبوه مباشرة. وتشويه الرموز ضمن الحديث النبوي أخطر من كل فعل قام به المشوهون على مر تاريخ الفكر الإسلامي. فلقد أساءوا للرسول من خلال كلامه إما من خلال هتك عرضه، أو الإساءة إلى أزواجه، أو تصويره كرجل محب للجنس والنساء.

ونحن لا نريد من هذا العمل تقويض السنة النبوية ، بل نحن نريد أن نقول للمختصين أن التخفي وراء مقولات الفتنة وتقويض الإسلام بنقد أهل الحديث هو مجرد خوف لا مبرر له ، وبالتالي نحتاج إلى رجال أمثال محمد الغزالي والألباني الذي بالرغم من مذهبه السلفي المتشدد إلا أنه تجرأ على إعادة النظر في بعض الأحاديث الصحيحة. والموقف الذي اتخذه الأزهر الشريف مؤخرا كان ليكون مفيدا لفتح باب الاجتهاد لو أنهم امتلكوا الجرأة وأعانوا عليه، كما نقله د. مصطفى الشكعة والذي صرح أن صحيح البخاري يزخر على 10 بالمائة من الأحاديث الضعيفة والمنتحلة.

ونحن نعتقد أن ما نثيره من تساؤلات حول بعض الصحاح يدور حول نسبة لا تزيد عن 20 بالمائة، وهذا يعني أن ما يُصطلح عليهم بالصحاح يشكلون في الأصل أصلا من أصول الفقه، لكنها ليست صحة قطعية وإنما صحة إجرائية، ونحن نتفق مع الدوري حين يقول :" ***إن ميلنا لقبول الروايات المتواترة في البحث ، أو تسليمنا***

بخبر إن تكرر وروده في عدة أمصار قد لا يفيد أحيانا، لأن هذه المصادر المتعددة قد تكون مستقاة من مصدر واحد، متى عرفنا صاحبه وجدناه مدلسا أو ضعيفا."
(الدوري،ع، 2005، 33)

5. المطلب وأفق الانتظار

ومن خلال ما سبق، نريد من علماء المسلمين والمفكرين فتح باب النقد والدراسة، فإذا كان البخاري قد صحح ما استطاع أن يصحح من التراث النبوي فإن التاريخ كفيل بأن يظهر رجال مثل البخاري ومسلم يصححون ما لم يستطع منهج الجرح والتعديل أن يضبطه ، وخاصة أن مناهج البحث تطورت وبلغت من العلمية بمكان، سواء على مستوى فقه اللغة أو نقد الوثائق نقدا علميا. ولعل ما دفعني لكتابة هذا الموضوع إن ما نعنيه اليوم من تخلف وتعصب مذهبي مرده بالأساس إلى هذا التّحول النسقي الذي أدخلنا إليه علماء الحديث وعلماء أصول الفقه . ولتجدني أحيِّ النظرة الثاقبة التي امتلكها الإمام أبو حنيفة حين لم يعترف إلا بعدد محدود من الأحاديث (18 حديثا). أوالموقف الذي اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب (ر ض) حين نهى أبا هريرة عن تحديث الناس بما يدعى أنه سمعه من الرسول، وسجن كل من ابن مسعود وكعب، كما عنّف ابن عباس.

وإذا كانت مدرسة الحديث سيطرت على الفكر الإسلامي منذ العصر العباسي الثاني فإن بوادر ظهور أهل القرآن بات وشيكا ، خاصة ونحن نشاهد اليوم الكثير من الأقلام التي تؤسس لمدرسة جديدة (القرآنيون). تجعل الاحتكام إلى القرآن الكريم وحده باعتباره الكتاب الصحيح (الأوحد).

المصادر والمراجع

- ابن عبد ربه، أَحمد بن محمد ، **العقد الفريد** ، ط 2، دار الكتب العلمية.
- ابن حجر، الهيتمي ، 1965 ، ***الصواعق المحرقة***، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، د.ط، القاهرة، شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- أركون، محمد، 1993، **الفكر الإسلامي**، د.ط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- إمام ، عبد الفتاح ، 1986، **كير كارد رائد الوجودية**، د . ط ، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- أوزون ، زكريا ، 2004، **جناية البخاري : إنقاذ الدين من إمام المحدثين**، ط 1، لندن ، رياض الريس للنشر.

- البخاري ، محمد بن إسماعيل ، 1991 ، **صحيح البخاري**، الجزائر، دار الشهاب.
- بوعرفة، عبد القادر، 2002 **(المنهج الفينومينولوجي)** أوراق فلسفية ، العدد رقم 07 ، ص (69 - 95).
- الدوري، عبد العزيز، 2005، **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**،ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- الحمد، تركي، 2003، **السياسة بين الحلال والحرام**، ط3، بيروت، دار الساقي.
- المرزوقي، أبو يعرب، ومحمد سعيد ر البوطي،2006، **إشكالية تجديد أصول الفقه**، ط 1، دمشق ، دار الفكر.
- العسقلاني ، ابن حجر،د.س، ***هدى الساري*** ، د.ط ، الرياض، دار الإفتاء المملكة العربية السعودية.
- صليبا، جميل ، 1986، **المعجم الفلسفي** ، ج2، ط 2، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- الشنقيطي، محمد (بن مختار)، 2004، **الخلافات السياسية بين الصحابة**، ط 1،الجزائر، دار قرطبة.
- الخليفة،عبد الله ، 1991، **لماذا القرآن ؟** ، د. ط ، طرابلس (ليبيا)، المركز العالمي.
- الغزالي، محمد، 2005، **السنة بين أهل الفقه والحديث**، ط 14، القاهرة، دار الشروق.